الوزير جمال الدين الاصفهاني وأعماله العمرانية والخيرية (521- 559هـ/1127-1163م) (دراسة تأريخيه)

أ. م. د. أردلان إسماعيل عمر. أ. م. د: حسين ابراهيم محمد

جامعة دهوك/ كلية التربية-عقرة /قسم التربية الاسلامية. جامعة دهوك/ كلية التربية-عقرة /قسم التاريخ

Minister Jamal Al-Din Al-Isfahani and his urban and charitable works (521-559 AH / 1127-1163 AD)(Historical study)

a. M. Dr.. Ardalan Ismail Omar. a. M. D: Hussein Ibrahim Mohamed

University of Duhok / College of Education - Aqrah / Department of Islamic Education

University of Duhok / College of Education - Aqrah / Department of History

ardalan.omar@uod.ac

07504562420

Abstract:

The research deals with a comprehensive study of a historical figure whose reputation became famous during the Arabic era, which is Minister Jamal Al-Din Al-Isfahani, whose name I see is linked to the city of Mosul, which is one of the ancient Arab Islamic cities in its history, civilization and distinguished geographical location, and this made its role witnessed in highlighting many of the figures that shine Their names in the history of this nation, including Minister Jamal al-Din al-Isfahani, are the subject of our research that deals with the life and morals of this minister.

This research aims to translate the contributions and works of that distinctive urban charitable personality, who played a political and civilized role during the medieval era, and to clarify his contributions to Islamic civilization through his urban and charitable works, and enrich them with various types of charities and their diversity.

The research contained an introduction, two studies, and a conclusion. As for the first topic, it touched on the talk about the biography of Minister Jamal Al-Din Al-Isfahani and his political role. As for the second topic, it was devoted to talking about his urban and charitable works and the purpose of these works. Finally, the conclusion of the important findings of the research.

Keywords: Jamal Al-Din Al-Isfahani، Minist ،civilization ،Mosul ،urban (charitable)،

ملخص البحث:

يتناول البحث دراسة شاملة لشخصية تاريخية ذاعت شهرتها في العهد الاتابكي وهو الوزير جمال الدين الاصفهاني الذي أر تبط اسمه بمدينة الموصل، التي تعد واحدة من المدن العربية الإسلامية العريقة في تاريخها وحضارتها وموقعها الجغرافي المميز، وهذا ما جعل دورها مشهودا في إبراز العديد من الشخصيات التي لمعت أسماؤها في تاريخ هذه الآمة ومنهم الوزير جمال الدين الأصفهاني، موضوع بحثنا الذي يتناول حياة وأخلاق هذا الوزير.

يهدف هذا البحث إلى ترجمة اسهامات واعمال تلك الشخصية الخيرية العمرانية المميّزة الذي لعب دورا سياسياً وحضارياً خلال العصر الوسيط، وبيان إسهاماته في الحضارة الاسلامية من خلال اعماله العمرانية والخيرية، وإثرائها بشتى أنواع الصدقات وتنوعها.

احتوى البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة، اما المبحث الاول فقد تطرق الى الحديث عن سيرة الوزير جمال الدين الاصفهاني ودوره السياسي، اما المبحث الثاني فقد خصص للحديث فيه عن إعماله العمرانية والخيرية والغاية من هذه الاعمال. واخيراً خاتمة بأهم النتائج التي توصل اليها البحث.

الكلمات المفتاحية (جمال الدين الاصفهاني، الوزير، العمرانية، الخيرية، الموصل، الحضارة)

المقدمة:

تعدّ مدينة الموصل من المدن الاسلامية البارزة، التي تبوأت عبر عصورها المكانة العلمية المرموقة بين الاوساط الثقافية وشهدت توهجاً ونشاطاً ثقافياً وفكرياً، واصبحت في ضوئها منبعاً من ينابيع العلم والمعرفة، ومنهلاً من مناهله، جذبت اليها جلّة كبيرة من العلماء والمفكرين والادباء الى حيز مسرحها الثقافي المتميز من بين الحواضر الفكرية الاسلامية، الامر الذي جعل دورها مشهوداً في ابراز العديد من الشخصيات التي لمعت اسماؤها في تاريخ الامة الاسلامية ومنهم الوزير جمال الدين الاصفهاني.

تحتفظ سجلات التاريخ بعامة والتاريخ الاسلامي بخاصة بالعديد من الشخصيات المتميزة والمؤثرة في تشكيل نمط العقيدة والسلوك الديني والثقافي لأي مجتمع، ومن الاهمية بمكانه دراسة مثل هذه الشخصيات التي أدت دوراً حضاريا وتاريخيا، سواء على المستوى العلمي أو الثقافي او العمل العمراني وحتى العمل الخيري. ومن هذا المنطلق تكمن اهمية دراسة موضوع عن شخصية مثل جمال الدين الاصفهاني(521- 559هـ/1127-1163م) الذي حفظ لنا التأريخ صفحات مشرقة عن هذه الشخصية السياسية الخيرية التي لا يمكن لأي منصف إنكارها.

لقد اقتضت طبيعة الموضوع والمادة العلمية المدروسة اتباع المنهج الوصفي التحليلي بالاعتماد على المصادر الأصلية، وتضمن البحث على مقدمة ومبحثين وخاتمة، تناول المبحث الاول سيرة هذا الوزير وصفاته وأخلاقه اذ اشتهر بالكرم العجيب الذي شمل مشارق الأرض و مغاربها، والحديث عن أهم المناصب التي تولاها جمال الدين الأصفهاني، و من ثم بيان دوره في الحفاظ على استمرار الحكم في أسرة عمادالدين زنكي وأولاده من بعده من خلال التصدي لمحاولات ألب أرسلان لانتزاع السلطة من أيديهم، ودور هذا الوزير في حل الأزمة الخطيرة بين الأخوين (بين قطب الدين مودود و نور الدين زنكي)، اما المبحث الثاني فتطرق للحديث عن أهم إنجازات الوزير جمال الدين العمرانية والخيرية في مدينة الموصل وخارجها ولاسيما في الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وختم هذا المبحث بشرح قصة اعتقاله وأسبابها ووفاته في داخل معتقله. واخيراً خاتمة بأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المبحث الاول: سيرة الوزير جمال الدين الاصفهاني ودوره السياسي:-

1-سيرة الوزير جمال الدين الاصفهاني:-

هو: أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الملقب جمال الدين المعروف بالجواد الأصفهاني الموصلي (1)، من عائلة عريقة عرفت بتولي مناصب مهمة في البلاط السلجوقي، واثبتوا جدارتهم وحنكتهم السياسية والثقافية لمن حوله من الحكام والأمراء والسلاطين إذْ تنافسوا هؤلاء على استخدامهم في مؤسسات الدولة، فتولوا مناصب مهمة في البلاط السلاجقة وكما اسلفنا، فعمل جده أبو المنصور في ديوان السلطان السلجوقي ملكشاه بن الب أرسلان(465-485هـ / 1072-1092م)، ووالده الكامل بن علي كان بارعاً في الأدب فأشتهر أمره وعلا شأنه وخدم في مناصب عالية (2)، فلما ولد له جمال الدين المعروف بالجواد قام بأديبه وتهذيبه وتثقيفه خير قيام، مما صقل مواهبه وجعله يبرز في مجال الأدب فأظهر كفاية ومقدرة عالية مما جعل السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه (485-487هـ/1092-1094م) ينبهر به ويضع عليه عينه فأستخدمه في ديوان العرض السلطاني(المسؤول عن المراسيم والاحتفالات) (3). فكان أول تجربة إدارية له ولكنه أثبت براعة فائقة في هذا المنصب الجديد وذاعت شهرته ووصلت أخباره الى عماد الدين زنكي (4)وأصبح محط أنظاره،فلما تولى أتابك(5)، زنكي الموصل وما والاها استخدم جمال الدين الاصفهاني وقربه واستصحابه معه الى الموصل، فولاه مدينة نصيبين في الجزيرة الفراتية، فظهرت كفايته وبراعته في إدارتها، وبعد ذلك أضاف اليه مدينة الرحبة في بلاد الشام(6)، فأبان له الكفاءة والعفة في إدارتها فأثبت له بأنه رجل الدولة يمكن الاعتماد عليه في ادارة شؤنها، ولهذا قرَّبه وجعله من خواصِّه، وهكذا افتتحت أمامه أبوب الشهرة (7).

لقد عرف بسيرته وأخلاقه الحميدة اذ كان كريماً نبيلاً، مُحبَّباً إلى الرَّعيَّة، كاملَ الرِّئاسة، حسن المحاضرة، مقبول المفاكهة ذا حديث عذب، وهذا ما جعله من المقربين لعماد الدين زنكي(8)، كما أشتهر بأنه كان رحيما بالناس متعطفا عليهم عادلا فيهم (9)، ولقد وصف بأنه لم يكن في زمانه من يضاهيه، ولا يقاربه في الجُود والنَّوال، والإحسان والإفضال، وكان كثير الصِّلات،غزير البر

والصَّدقات،لذا لُقب بالجواد(10)،والامثلة على كرمه عديدة نذكر منها، عندما مرت مدينة الموصل بأزمة اقتصادية شديدة في عصره اذ نفذت الأقوات وشحت وغلت الاسعار، فكان يرسل لرجل من اهل الصلاح في الموصل يدعى الشيخ عمر الملا الاموال لينفقها وكلما نفذت يعلمه فيعطيه غيرها وهكذا حتى انفق جميع ماله فارسل له فراش داره من بسط ومحافير ليبيعها ويتصدق بثمنها.وبعدها ارسل ملابسه وعمامته ليبيعها ويتصدق بثمنها للفقراء والمحتاجين فلما وصلت الثياب الى الشيخ عمر الملا بكى وباعها وتصدق بثمنها(11). ويبدو هذا الكلام مبالغ فيه ويعدُ نوع من الدعاية لتلميع صورة الامراء الزنكيين ووزرائهم لاسيما ان ابن الاثير كان من اشد المناصرين للأسرة الزنكية، اذ كانت هناك علاقات وارتباط وثيق بين اسرة ابن الاثير والاسرة الزنكية، فالقي بظلاله على كتابات ابن الاثير، ثم ان هناك امر اخر وهو من يشتري السجاد والمحافير في هكذا ظروف حالكة والمجاعة قد أطلت برأسها في المدينة اليس من الاولى شراء الاقوات بدل من هذه الاشياء الكمالية.

كما عرف برعايته للحركة العلمية اذ أصبحت مدينة الموصل في عهده ملجأ للطلبة العلم (12)، فقصده العلماء والفقهاء،وعلى الرغم من كثرة مشاكله وانشغاله بالسياسة إلا أنه عرف بتشجيعه للعلم والعلماء ورعايتهم والاهتمام بهم من خلال متابعة نشاطاتهم وحضور مجالسهم في جوامع الموصل وخاصة ايام الجمع كما اكد ذلك شاهد عيان وهو العماد الاصفهاني (ت597هـ/1200م)، الذي زار مدينة الموصل في سنة (542هـ/1147م)، اذ يقول: ((بانه حضره عند جمال الدين بالجامع في جمعتين وتكلم عنده مع الفقهاء في مسألتين)) (13)، وتقديراً لدعم جمال الدين الاصفهاني واعترافا بالجميل، فقد عمد العالم والطبيب الموصلي المشهور مهذب الدين بن هبل (ت610هـ/1213م) (14)، على تسمية أحد مؤلفاته في الطب على اسمه وأسماه بـ(الطب الجمالي) (15)، وعندما أراد العالم النحوي سعيد بن المبارك بن الدهان (ت569هـ/1173م)،الرحيل من بغداد الى دمشق وذلك في سنة (544هـ/1149م)،تمكن جمال الدين الاصفهاني من اقنعه بالمكوث والاستقرار في مدينة الموصل لأجل التأليف والتصنيف(16)، ويعتبر ذلك من إنجازاته الكبيرة التي لا يمكن نسيانها.

1- دوره السياسي:

أ- المناصب التي تقلدها:-

أما المناصب التي تقلدها فأول منصب تولاه وكما اسلفنا، هو منصب ديوان العرض للسلطان (محمود بن محمد ملكشاه السلجوقي)، واثبت الوزير براعته في هذا المنصب وأكتسب وراء ذلك شهرة حتى أصبح وزيراً لاحد امراء السلاجقة وهو الامير خصبك بن كند غدي السلجوقي،أخذ عماد الدين زنكي يبحث عن رجال أكفاء يثق بهم ليوليهم مناصب في دولته فبلغ كفاءة الوزير وبراعته في الادارة مسامعه فقرَّبه لنفسه وعندما صدر قرار توليه الامير خصبك مدينة الموصل في سنة (521هـ/1127م) (17)، شرع في الاستحواذ على المناطق التابعة للموصل وكافأ المخلصين له بإسناد المناصب المهمة اليهم، وعلى رأسهم جمال الدين، اذ ولاه مدينتين من مدن اقليم الجزيرة الفراتية في البداية مدينة نصيبين،ثم اضاف اليه مدينة الرحبة، وبعد أن أظهر له إخلاصه ونزاهته وقدرته وكفاءته في إدارة هاتين المدينتين أصبح من كبار مستشاريه ومعاونيه ومقربيه حتى نال ثقته فجعله مشرفاً على جميع مملكته، ولا نكون مبالغين إن قلنا بأنه أصبح الرجل الثاني بعد عماد الدين زنكي(18).

ب- دوره في الحفاظ على حكم آل زنكي:-

أثبتت الأحداث التاريخية فيما بعد فراسة وحنكة وذكاء عماد الدين زنكي في اختياريه واعتماده على هذا الرجل الذي كان له دور في الحفاظ على آل زنكي ومملكته،اذ كان برفقة عماد الدين زنكي في محاصرته لقلعة جعبر(19)، وشاهد أطماع ألب أرسلان (460-466هـ/ 1067-1072م) واستعداداته من اجل امتلاك مدينة الموصل (20)، وهنا بدأ يخطط لاحباط هذه المحاولة والحفاظ على بقاء مدينة الموصل بأيدي أولاد سيده عماد الدين زنكي وتحت حكمهم فانتهج سياسة الخديعة والمراوغة مع السلطان الب ارسلان الذي كان موجوداً ايضا ضمن المحاصرين لهذه القلعة. فكان اجراء جمال الدين الاصفهاني الاول هو الاتصال بالأمير الحاجب صلاح الدين محمد الياغيسياني كخطوة أولى لاتفاق معه لمواجهة أطماع ألب ارسلان فأنتجا سياسة الخديعة والمراوغة فتظاهرا

بحبهما له والميل لمساعدته في الاستحواذ على مدينة الموصل،"فقربهما طمعاً في أن يكونا عوناً له على تحصيل عرضه" (21). فاستطاعا أن يكسبا ثقته.

وعندما نجح في خطته أردفه بالخطوة الثانية وذلك عندما اتصل بنائب عمادالدين زنكي على الموصل الأمير زين الدين علي بن بكتكن والد الامير مظفر الدين كوكبري (ت:630هـ/1232م) صاحب اربيل، وإخباره بمقتل سيده في محاولة منه لإحباط مخططات ألب ارسلان اذ طلب منه الاسراع في إقناع واستدعاء ابنه سيف الدين غازي(ت:544هـ/1149م) الذي كان مقيما في شهرزور (22)،فأجاب طلبه وأرسل من يحضره (23). لم يكتف جمال الدين الاول بهذه الاجراءات بل أردفه بالإجراء الثالث وهو إبعاد ألب ارسلان من مدينة الموصل بإقناعه بالتوجه الى مدينة الرقة (24).وألهاه بشرب الخمر والجواري، الامر الذي مكن جمال الدين من استمالة العسكر لصالح سيف الدين غازي الاول، بعد أن أخذ منهم اليمين بالتوجه والالتحاق بسيف الدين غازي الاول المتواجد في مدينة الموصل(25).

إلا أن أطماع ألب ارسلان جعله أن لا يقيم كثيراً برقة اذ توجه الى سنجار(26)، ولكن جمال الدين استعمل معه خديعة مرة اخرى، وأقنعه بالتوجه صوب مدينة الموصل لأن سنجار تابعة لموصل فإذا سقط مدينة الموصل فان سنجار تكون لقمة سائغة أمامه لذا سمع كلامه فعبرت بقواته نهر دجلة وعند مدينة بلد (27)غادر جمال الدين معسكر ألب ارسلان سراً ودخل مدينة الموصل، ويبدو أنه كان متصلاً بهم سراً ولهذا دخل المدينة دون عائق، فأجتمع بسيف الدين غازي الاول وأطلعه على قوة عدوه وضعفها لذا أصبح لقمة سهلة سائغة أمام القائد عزالدين ابا بكر الدبس الذي عيَّنه سيف الدين غازي الاول للقضاء على الب ارسلان وفعلاً استطاع ان يقبض عليه ويحتجزه في مدينة الموصل وبذلك تم القضاء على خطره نهائيا. وتقديراً لجهوده هذا عينه سيف الدين غازي وزيراً له وخوله في إدارة شؤون مدينة الموصل ومنحه عشر دخلها (28).

لم يتوقف جهوده في الحفاظ على آل زنكي عند هذا الحد بل كان له دور بارز في إنهاء الأزمة الخطيرة بين الأخوين نور الدين محمود(ت:542هـ/1147م) حاكم حلب وقطب الدين مودود (ت:566هـ/1170م) حاكم الموصل، والسبب في ذلك أن بعض الامراء وفي مقدمتهم صاحب سنجار المقدم عبدالملك بن شمس الدين محمد(29)،أبدوا امتعاضهم لتلك الصلاحيات التي منحت لجمال الدين، فاغتنموا فرصة وفاة سيف الدين غازي في سنة (544هـ/1149م)، فاتصلوا سراً بنورالدين لكي يتسلم مدينة الموصل بحجة أنه أكبر سناً من أخيه قطب الدين، ومما زاد التوتر أكثر بين الاخوين حينما اتفق جمال الدين مع باقي الامراء وأمير الجيوش في الموصل زين الدين علي كوجك(ت:631هـ/1233م) على تعيين أتابك للموصل والمناطق التابعة لها(30)،ومما زاد الامر تعقيداً دخول نور الدين مدينة سنجار بصحبة سبعين فارساً من أكابر دولته وأمرائه(31). الامر الذي جعل قطب الدين يعتبر تهديدات اخوه نور الدين تهديداً عليه وعلى مملكته ولهذا جهز جيشاً برئاسته ووزيره جمال الدين وأمير جيشه علي كوجك لمواجهته في سنجار فنزلوا جميعاً في بلدة تلعفر(32)، إلا أن الذي لم يكن في الحسبان وجعل موقف قطب الدين في غاية الصعوبة والحرج والضعف هو انضمام جماعة من عسكره الى نور الدين مما غيَّر موازين القوى (33)، وهنا يبرز دور الوزير جمال الدين وحنكته السياسية في الحفاظ على آل زنكي وإنقاذ الموقف، اذ رأى أن أي صِدام مسلح بين الاخوين سيكون له نتائج سلبية عليهما وعلى الاسرة الزنكية، وإيجابية بالنسبة لأعدائهم المتربصين بهم، لذا سعى الى عقد صلح يرضي الطرفين وأستطاع الوزير جمال الدين من إقناع قطب الدين بالتنازل لأخيه نور الدين عن حمص والرحبة والرقة مقابل أن يرحل عن مدينة سنجار لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة لأتابكة الموصل، فذهب بهذه المقترحات الى نور الدين وأستطاع إقناعه بمقترحاته لحل الازمة فوافق الاخير على هذا العرض ورحل منها الى بلاد الشام بعد أن استولى على كل أموالها وذخائرها(34). وأصبحت العلاقة بينهما فيما بعد في أحسن الاحوال مبنية على الثقة المتبادلة والتعاون المشترك في جميع الحالات والفضل يعود لجهود وعبقرية السياسية للوزير جمال الدين الذي كان له دور في تحسين العلاقة بينهما وتوطيدها(35).

المبحث الثاني / اعماله العمرانية والخيرية:-

كان للوزير جمال الدين إنجازات عمرانية ظلت خالدة بعد وفاته، وقد شمل أعماله العمرانية مدينة الموصل والأماكن المقدسة في مكة والمدينة، فعلى صعيد مدينة الموصل والمناطق التابعة فانه بنى الجسور والقناطر والرُّبط بالموصل،وعمل البرك والمصانع وغير ذلك من أعماله الخالدة، ويمكن حصر أعماله العمرانية والخيرية كالآتي:-

1- أعماله العمرانية:

أ- مدينة الموصل والمناطق التابعة لها:-

ارتبط اسم الوزير جمال الدين بمدينة الموصل ولهذا أولى إهتماماً بالغاً بها وبالمناطق التابعة لها في سنجار ونصيبين،فقام بإنشاء وبناء العديد من الأماكن للعبادة ولعقد المجالس العلمية والفقهية ولتوزيع الصدقات وهو ما كان يسمى حينئذ بالربط(36).وشملت الرُّبط مدينة الموصل وسنجار ونصيبين وغيرها وقصده الناس من جميع الاماكن (37). كما أنه قام بإنشاء الجسور والقناطر،ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناس مثلها الجسر الذي بناه على دجلة عند جزيرة ابن عمر من اراضي الجزيرة الفراتية اذ أستخدم في بناه الحجارة المنحوتة (الكلس) والرصاص وأوثقه بالحديد بين البنيان، إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه (38). كما قام بإنشاء جسر آخر على نهر الأرياز عند جزيرة ابن عمر أيضاً (39).

ب - الأماكن المقدسة:-

أما الأعمال العمرانية التي قام بها الوزير جمال الدين في الأماكن المقدسة، قام بتجَديدَ بِنَاءَ مَسْجِدِ الْخَفِيْفِ بِمِنًى، وأنفق عَلَيْهِ أَمْوَالًا جَسِيمَةً، وَبَنَى الْحِجْرَ بِجَانِبِ الْكَعْبَةِ، كما قام بزَخْرَفَ الْكَعْبَةَ وتزينها بالذهب، وبنى أبواب الحَرَم وشيَّدها، ورَفَع أعتابها صيانةً للحرم، كما بنى المسجد الذي على جبل عَرَفَات، وكان النَّاس وخاصة الحجاج يعانون في صعودهم إلى أعلى هذا الجبل شِدَّة وضنكا في مراسيم الحج، ولكي يسهل عليهم عملية الصعود باشر ببناء الدرج لكي يتسنَّ لهم الصعود الى أعلى جبل بطريقة هندسية محكمة،كما أنه قام بإيصال الماء الصالح للشرب إلى هذا الجبل بعملية صعبة ومكلفة مادياً أيضاً، بما أن الماء كان لبعض القبائل العربية الساكنة لوادي النعمان وهو واد يقع بين مكة والطائف،عقد معهم إتفاق بموجبه يسمح بجريان الماء إلى جبل عرفات في موسم الحج مقابل منحهم أموالاً طائلة،ولكي يكتمل العملية بنجاح قام بتخزين الماء فعمل البرك والمصانع، وأجرى الماء في قنوات أي عن طَرِيق معمولة تَحت الْجَبَل مَبْنِيَّة بالكلس لكي يصل الماء الى الحجاج بدون عناء فَكَانَ النَّاس يَجدونَ بِهِ رَاحَة عَظِيمَة (40).وذكر الذهبي أنه أَنشَأَ مَدْرَسَةً بِالمَدِيْنَةِ المنورة (41)، ولكن لم يذكر مكانها ولا اسمها ليتسنى لنا البحث عنها.

وقام بتجديد أبواب المسجد الحرام كلها وطلائها بالذهب والفضة(42).وَمن اجل الْأَعْمَال الَّتِي عَملهَا نفعا للمسلمين عامة ولأهل المدينة خاصة أَنه بنى سوراً على مَدِينَة النَّبِي(ﷺ)، اذ كَانَت بِغَيْر سور، وذلك لمنع الأعراب من الدخول إليها، وكانت الأَعراب تنهبُها وتغارُ عليها، وأَهلهَا فِي ضنك وضر مَعَهم (43).

الطريق الى مكة كانت صعبة وطويلة ولاسيما في ذلك الزمان ولكن جمال الدين لم يبخل في خدمة حجاج بيت الله الحرام فقام بإنشاء صهاريج وحفره مواقع وأماكن بهدف تجميع وتخزين المياه بها وخاصة مياه الامطار على طول الطرق المؤدية الى مكة والمدينة لغرض توفير المياه للشرب وإغتسال الحجاج، فضلاً عن إنشائه حماماً ثانياً وصفت بالكبيرة ليستحم بها الحجاج(44). وأشار ابن جبير الى أنه قام بإصلاح عامة طرق المسلمين بجهة المشرق من العراق الى الشام الى الحجاز، واختط المنازل في المفازات، وأمر بعمارتها كمأوى لأبناء السبيل وجميع المسافرين، وابتنى بالمدن المتصلة من العراق الى الشام فنادق عيّنها لنزول الفقراء وأبناء السبيل الذين يضعف أحدهم عن تأدية الأكرية، فسارت بجميل ذكر هذا الرجل الرّفاق، وملئت ثناء عليه الآفاق(45).

2- أعماله الخيرية:

لقد أطنبت المصادر التاريخية في ذكر محاسنه وكرمه وسخائه ولم يزل يعطي ويبذل الأموال ويبالغ في الإنفاق حتى عرف بالجواد، وصار ذلك كالعلم عليه، حتى لا يقال له إلا " جمال الدين الجواد (46)". وَكَانَ أحب الْأَشْيَاء إِلَيْهِ إِخْرَاج المَال فِي الصَّدقَات

اذَ كَانَ يضيق على نَفسه وبيته ليتصدق(47).حتى وصفه بأنه كان" أسخى النَّاس وَأَكْثَرهم عَطاء وبذلا لِلْمَالِ رحِيما بِالنَّاسِ متعطفاً عَلَيْهِم عادلا فيهم (48)". "وكانت المَوْصل في أيامه ملجأ لكلّ ملهوف، ومفزعًا لكل مكروب، ولم يكن في زمانه من يضاهيه، ولا يقاربه في الجُود والنَّوال، والإحسان والإفضال، وكان كثيرَ الصِّلات، غزير البر والصَّدقات وكانت صدقاتُه وصِلاتُه في المشرق والمغرب، يبعث بها إلى خُرَاسان، والعراق والبصرة، والكُوفة، وبغداد والشَّام، ومِصر، والحجاز، واليمن، فيعمُّ الفقهاء و العلماء والزُّهَّاد وأرباب البيوت، وغيرهم، وما خيَّبَ رجاء مَنْ قَصَده، وكان له في كلّ يوم –خارجًا عن الرَّواتب– مئة دينار أميري يتصدَّق عَلَى بَابِ دَارِهِ، كُلَّ يَوم لِلصَّعَالِيكِ وَالْفُقَرَاءِ، هَذَا سِوَى الْإِدْرَارَاتِ وَالتَّعَهُّدَاتِ لِلْأَئِمَّةِ وَالصَّالِحِينَ وَأَرْبَابِ الْبُيُوتَاتِ(49).كما انه انشاء في مدينة الموصل دار كبير متخصص لا طعام الغرباء الوافدين الى المدينة ورعاية ابناء السبيل الذين انقطعت الوسائل في هذه المدينة (50).

وكان يحمل في كل سنة إلى مكة والمدينة من الأموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدة سنة كاملة، وكان له ديوان مرتب باسم أرباب الرسوم والقصاد لاغير (51)".وَكَانَ يَشْتَرِي الْأَسْرَى كُلَّ سَنَةٍ بِعَشَرَةِ آلَافِ دِينَارٍ، هَذَا مِنَ الشَّامِ حَسْبُ، سِوَى مَا يَشْتَرِي مِنَ الْكَرَجِ(52)، وَقد كَانَت صدقاته تجوب شَرق الأَرْض وغربها اذ كَانَ أحب الْأَشْيَاء إِلَيْهِ إِخْرَاج المَال فِي الصَّدقَات (53).

2- وفاته:

لقد بالغ الوزير جمال الدين في انفاق الاموال الطائلة من خزانة مدينة الموصل في اعمال البر في مشارق الارض ومغاربها الامر الذي ولدى الاستياء لدى اتابك الموصل قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر(ت: 565هـ /1170م)، على الرغم من اعماه الجليلة تجاه الاسرة الزنكية بعامة وتجاهه بخاصة، وممازاد من غضب قطب الدين مودود كثرة الوشايات من رجال امير الجيش زين الدين علي بن بكتكن، بقولهم: ((يأخذ أموالك فيتصرف بها)) (54)، فالقي القبض على الوزير جمال الدين سنة(558هـ/ 1162م) (55)، وحبس في قلعة الموصل لمدة سنة فأصابه مرض وتوفي في الحبس سنة(559هـ/1163م) (56)، ودفن بالموصل ثم نقل سنة (560هـ/ 1164م) إلى مكة المكرمة وطيف به حول الكعبة، ثم حمل إلى المدينة المنورة ودفن بها بالبقيع بعد أن أدخل المدينة، وطيف به حول حجرة الرسول (ﷺ) مراراً (57).وأنشد الشخص الذي كان مرتباً معه، فقال:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما... سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثني رماله... عليه وبالنادي فتبكي أرامله (58).

ولابد من الاشارة ان الذي تكفل بمصاريف نقل جثمان الوزير جمال الدين الاصفهاني من مدينة الموصل الى مكة المكرمة والمدينة المنورة هو اسدالدين شيركوه (ت: 565 هـ/1169م) عم صلاح الدين الايوبي(567-589هـ /1171-1193م) تنفيذاً لاتفاق مع الوزير جمال الدين الاصفهاني. اذ اتفق الاثنان على انه من مات قبل يحمل جثمان الاخر الى المدينة المنورة.

الخاتمة (النتائج):-

توصل البحث الى جملة من النتائج وكالاتي:

1- كان لانتساب الوزير جمال الدين الى اسرة مشهورة، عملت في البلاط السلجوقي،ذات تاثير كبير عليه، اذ جعلة محط انظارالسلاطين والامراء السلاجقة، مهد السبيل لاختياره من قبل عماالدين زنكي لتسنم منصب ولاية مدينتي نصيبين والرحبة، الامر الذي فتحت له الابواب لتولي مناصب عدة حتى اصبح الشخص الثاني في اتابكية الموصل.

2- لقد عرف بسيرته وأخلاقه الحميدة اذ كان كريماً نبيلاً، مُحبَّباً إلى الرَّعيَّة اذ اشتهر بالعدل ورعاية ابناء المجتمع دون تمييز، فضلاً عن كرمه التي فاقت التصورات وان كان مبالغ فيه بعض الاحيان.

3- عرف بالسعي في الحفاظ على حكم اسرة زنكي، اذ كان موالياً وفياً لعمادالدين زنكي واولاده من بعده حتى وفاته، ووقف بوجه الب ارسلان واطماعه من اجل امتلاك مدينة الموصل.

4- كان ذا عقلية سياسية فذا اذ تمكن من حل جميع المشاكل والازمات الاقتصادية والسياسية ، ولاسيما المشاكل التي وقعت بين أولاد عماالدين زنكي.

5- عرف باعماله العمرانية والخيرية، التي ظلت خالدة حتى بعد وفاته وما قام به من اعمال عمرانية وخيرية، ولاسيما في مدينة الموصل والاماكن المقدسة في مكة والمدينة خير شاهد على تلك الاعمال

الهوامش والمصادر:

1) ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر (ت، 681هـ/1282م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر،(بيروت، 1994م)، (ج5/ص 143).
2) ابن خلكان: وفيات الاعيان (ج5/ص143).
3) ابن خلكان: وفيات الاعيان (ج5/ ص143).
4) هو:عماد الدين زنكي بن اق سنقر أحد أمراء الدولة السلجوقية صدر أمر توليه حكم الموصل سنة (521هـ/1127م)، استطاع تأسيس الدولة الزنكية (534-569هـ/1139-1173م) في الموصل وامتدت لاحقا لتشمل كامل الجزيرة الفراتية والشام وقتل في سنة (541هـ/1146م)، وهو يحاصر قلعة جعبر. للمزيد ينظر، إبن الآثير:أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد (ت، 630هـ/1233 م)، التأريخ الباهر في دولة الاتابكية في الموصل، د- ن،(القاهرة، 1963م)، (ص24).
5) الاتابك لفظ تركي يتألف من مقطعين الاول "أتا" بمعنى أب والثاني "بك " ويعني أمير، بمعنى "أبو الأمراء". وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السّلجوقيّ حين فوّض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة(465هـ/1073م)، وقيل أطابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، للمزيد ينظر، القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد (ت، 821هـ/ 1418 م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، (بيروت.د-ت)،(ج4/ص18).
6) ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت، 626هـ/1229 م)، معجم البلدان، دار صادر،ط2،(بيروت، 1995 م)، (ج3/ص34).
7) ابن خلكان: وفيات الاعيان،(ج5/ص143).
8) الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت، 748هـ/1348 م)،سير أعلام النبلاء، دار الحديث،(القاهرة، 1427هـ/2006م)، (ج15/128ص).
9) ابو شامة: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت، 665 هـ/ 1267 م) ؛ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزريق، مؤسسة الرسالة،(بيروت، 1997 م)،(ج1/ص428).
10) سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله (654 هـ/ 1256 م)، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق وتعليق: محمد بركات (وأخرون)، دار الرسالة،(دمشق، 2013 م)، (ج21/ص48).
11) ابن الاثير: التاريخ الباهر،(ص129).
12) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان،(ج21/ ص48)؛ أبو شامة: الروضتين،(ج1/ص426).
13) البنداري:عماد الدين محمد بن محمد بن حامد الاصفهاني(ت597هـ/1200م)،تأريخ دولة آل سلجوق، د- ن،(بيروت، 1980م)(ص193).
14) هُوَ أَبُو الْحسن عَليّ بن أَحْمد بن عَليّ بن هُبل الْبَغْدَادِيّ وَيعرف أَيْضا بالخلاطي كَانَ علامة زَمَانه فِي صناعَة الطِّبّ وَفِي الْعُلُوم الْحكمِيَّة متميزا فِي صناعَة الْأَدَب وَله شعر حسن، ولد بِبَغْدَاد فِي بَاب الأزج سنة (515هـ / 1121م)،وَنَشَأ بِبَغْدَاد وَقَرَأَ الْأَدَب والطب. ابن أبي أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس موفق الدين، أبو العباس (ت، 668هـ/ 1270 م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة،(بيروت، د-ت)،(ص 408).
15) ابن أبي أصيبعة:عيون الانباء (ص 408-409).
16) القفطي:جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (ت، 646هـ /1248 م)،إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو

الفضل إبراهيم،دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية،(بيروت .،1982م)،(ج2/ص47-48).

17) ابن الأثير: الباهر،(ص75)؛ أبو شامة: الروضتين،(ج1/ص115-116).

18) ابن الأثير: الباهر، (ص118)؛ ابن خلكان:وفيات الاعيان،(ج5/ص143).

19) قلعة جعبر: تقع على نهر الفرات بين بالس والرّقّة قرب صفّين، في الجزيرة الفراتية. ياقوت الحموي: معجم البلدان،(ج2/ص142).

20) ابن الأثير: الباهر، (ص71-72).

21) ابن الأثير: الباهر، (ص71-72)؛ ابن العبري: غريغوريوس ابو الفرج ابن أهرون بن توما الملطي، (ت، 685هـ/ 1286 م)، تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق،ط3،(بيروت، 1992 م)،(ص206-207)؛ أبو شامة: الروضتين، (ج1/ص 169-172).

22) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين أربيل وهمذان. ياقوت الحموي: معجم البلدان،(ج3/ص375).

23) البنداري: تأريخ،(ص190).

24) الرقة: مدينة مشهورة على نهر الفرات من اراضي الجزيرة الفراتية. ياقوت الحموي: معجم البلدان،(ج4/ص516).

25) ابن الاثير: الكامل، (ج11/ص123)؛ابن العبري: تاريخ مختصر الدول،(ص206-207).

26) سِنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة الفراتية، وهي في لحف جبل عال..ياقوت الحموي: معجم البلدان،(ج3/ص262).

27) بلد: وهي مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل،بينهما سبعة فراسخ(الفرسخ=5800متر × 7 فرسخ= 40600متر)، واسمها بالفارسية شهراباذ. ياقوت الحموي: معجم البلدان، (ج1/ص481).

28) ابن الأثير: الباهر،(ص84)؛ ابن خلكان: وفيات الاعيان،(ج5/ص143-144).

29) ابن الاثير: الكامل،(ج11/ص139).

30) البنداري: تأريخ،(ص205).

31) ابن الأثير: الباهر،(ص95).

32) تلعفر: قلعة وربض بين سنجار والموصل في وسط واد فيه نهر جار، وهي على جبل منفرد حصينة محكمة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، (ج2/ص39).

33) ابن الأثير: الباهر،(ص96).

34) ابو شامة: الروضتين،(ج1/ص170-173).

35) ابن القلانسي: أبو العلي حمزة،(ت،555هـ/1160م)، ذيل تأريخ دمشق، د-ن،(بيروت،1908)،(ص357).

36) ابو شامة: الروضتين،(ج1/430)؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان(ج21/ص48).

37) ابو شامة: الروضتين،(ج1/ص430)؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان(ج21/ص48).

38) ابن الاثير: الكامل (ج9/ص314)؛ ابوشامة: الروضتين،(ج1/ص430)؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (ج21/ ص48).

39) ابو شامة: الروضتين،(ج1/ص430).

40) ابن الاثير: الكامل (ج9/ص314)؛ ابو شامة: الروضتين،(ج1/ص430)؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (ج21/ ص48).

41) الذهبي: سير أعلام النبلاء،(ج15/ص128).

42) ابن الاثير: الكامل (ج9/ص314)؛ ابو شامة: الروضتين،(ج1/ص430)؛سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (ج21/ ص48)؛ ابن جبير: ابو الحسين محمد بن أحمد الكناني (ت،614هـ/1217م)، رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت، (ص92).

43) ابن الاثير: الكامل (ج9/ص314)؛ ابو شامة:الروضتين،(ج1/ص430)؛سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (ج21/ ص48)؛ابن جبير: رحلة ابن جبير،(ص91-92).

44) ابن جبير: رحلة ابن جبير،(ص91–92)؛ محمد نزار حميد طه، المشرق العربي الإسلامي من خلال رحلة ابن جبير، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل كلية التربية 2001م، (ص124).

45) رحلة ابن جبير،(ص92–93).

46) ابن خلكان: وفيات، الاعيان (ج144/5).

47) ابو شامة:الروضتين،(ج1/ص431).

48) ابو شامة:الروضتين،(ج1/ص428).

49) ابن الاثير: الكامل (ج9/ص314)؛ سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (ج21/ ص48).

50) ابن جبير: رحلة ابن جبير،(ص104).

51) ابن خلكان:وفيات الاعيان، (ج144/5).

52) ابن الاثير:الكامل،(ج9/ص314).

53) ابو شامة: الروضتين،(ج1/ص431).

54) ابن الاثير: الباهر، (ص119).

55) ابن الاثير: الباهر، (ص119).

56) ابن الاثير: الباهر، (ص127).

57) ابن خلكان: وفيات الاعيان، (ج5/ 145–146).

58) ابن خلكان: وفيات الاعيان، (ج145/5–146).